

الزحافات والعلل

تقديم

هي التغييرات التي تطرأ على التفعيلات، فمستفعلن مثلاً يتغير ويجوز أن يكون متفعلن وهكذا في باقي التفعيلات. وهذه التغييرات تسمى بالزحافات والعلل.

فالزحافات : هي تغييرات تطرأ على التفعيلات، لا تلزم غالباً، وقد تقع في العروض والضرب والحشو (بمعنى أنها قد تقع في كل التفعيلات في القصيدة).
والعلل : هي تغييرات تطرأ على التفعيلات، إذا استعملناها لزم غالباً أن نستعملها في جميع القصيدة، ولا تدخل هذه التغييرات إلا في العروض والضرب (بمعنى أنها لا تدخل إلا في آخر تفعيلة من كل شطر).

والعلل نوعان : علل زيادة، وعلل نقص. فالزيادة تكون تغييراً بزيادة في التفعيلة، والنقص عكسه.

مثال وإيضاح للزحاف

قلنا الزحاف : هو تغيير لا يلزم غالباً، وقد يقع في العروض والضرب والحشو. في بحر الكامل مثلاً وزنه :
متفاعلم متفاعلم متفاعلم متفاعلم متفاعلم متفاعلم

فمثلاً إذا دخله زحاف وغير (متفاعلم) إلى (مستفعلن) فإنه لا يلزم منه أن تكون كل الأبيات على نفس القياس. وقد يدخل في العروض والحشو والضرب، فيجوز أن نقول :

متفاعلم متفاعلم مستفعلن مستفعلن متفاعلم متفاعلم
متفاعلم مستفعلن متفاعلم مستفعلن متفاعلم مستفعلن
مستفعلن متفاعلم متفاعلم متفاعلم مستفعلن مستفعلن

فنلاحظ أن التغييرات لم تلزم أن تكون متشابهة في جميع الأبيات على قياس واحد. وإذا رجعنا مثلاً إلى معلقة عنترة بن شداد لوجدنا ذلك جلياً.

يقول عنترة :

هل غادر الشُّعراء من / متردم ... أم هل عرف/ت الدار بع/د توهم
مستفعلن متفاعلم متفاعلم مستفعلن مستفعلن متفاعلم
أعياءك رس/م الدار لم / يتكلم حتى تكل/م كالأصم/م الأبيكم
مستفعلن مستفعلن متفاعلم مستفعلن متفاعلم مستفعلن
إلى آخر القصيدة [وهي من الكامل].

أنواع الزحاف

والزحاف نوعان: مفرد ومركب.

■ فالزحاف المفرد ما كان في موضع واحد من التفعيلة، كحذف السين من مستفعلن، فتصير متفعلن.

- والزحاف المركب (ويسمى مزدوجاً أيضاً) ما كان في موضعين من التفعيلة، نحو حذف السين والفاء معا من مستفعلن، فتصير متعلن، فتنقلها إن شئت إلى فَعَلْتَن (وهي بنفس الوزن العروضي).

عندنا ثمانية زحافات، هي:

- الإضمار: وهو تسكين الثاني المتحرك. ويدخل متفاعِلن فتصير مَثْفاعِلن، وتقلب إلى مستفعلن.
- الوقص: وهو حذف الثاني المتحرك. ويدخل متفاعِلن فتصير مفاعِلن.
- الخبن: وهو حذف الثاني الساكن. ويدخل خمسة من التفاعيل وهي: فاعِلن وفاعِلاتن ومستفعلن ومستفَعْلن ومفعولت، فتصير: فَعِلن وفَعِلاتن ومثْفَعِلن ومثْفَعْلن ومفعولت.
- الطي: وهو حذف الرابع الساكن، ويدخل تفعيلتين هما: مستفعلن ومفعولت، فتصيران: مستَعْلن (وتقلب إلى مُثْفَعْلن) ومفعولت. (ولا يدخل الطي متفاعِلن إلا مع الإضمار، دفعا لتوالي خمس حركات، وسيأتي في الزحاف المركب إن شاء الله).
- العصب: وهو تسكين الخامس المتحرك، ويدخل مفاعِلتن، فتصير مفاعِلتن، وتقلب إلى مفاعِلن.
- العقل: وهو حذف الخامس المتحرك، ويدخل مفاعِلتن، فتصير مفاعِلتن، وتقلب إلى مفاعِلن.
- القبض: وهو حذف الخامس الساكن، ويدخل فعولن ومفاعِلن فتصير فعول ومفاعِلن. (أما فاع لاتن فلا تكون إلا عروضاً أو ضرباً في البحر المضارع، ولا يدخلها القبض).
- الكف: وهو حذف السابع الساكن، ويدخل مفاعِلن وفاعِلاتن وفاع لاتن ومستفَعْلن فتصير مفاعِلن وفاعِلاتن وفاع لاتن ومستفَعْلن (ولا يدخل الكف مفاعِلتن إلا مع العصب، دفعا لتوالي خمس حركات، وسيأتي في الزحاف المركب إن شاء الله).

مثال وإيضاح للعلة

قلنا العلة : هو تغيير يلزم غالباً، ولا يقع إلا في العروض والضرب. أيضاً في بحر الكامل مثلاً وزنه كما سبق :

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن

فمثلاً إذا دخلت على ضربه علة، وغيّرت (متفاعِلن) إلى (متفا) بالنقصان، فإنه يلزم منه أن تكون كل القصيدة على ضربها (متفا) وهذا قد يدخل في العروض والضرب، وصورته في الضرب هكذا :

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفا

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفا

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفا

فلاحظ أن التغيير لزم جميع الأبيات على قياس واحد. وإذا رجعنا إلى أبيات لأبي دهب الجمحي وجدنا ذلك جلياً.

يقول أبو دهب الجمحي :

عَقَمَ النساءُ / فما يلدن شبيبهه إن النساءُ / بمثله / عَقَمُ

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفا

نَزَرُ الكلامُ / من الحياءُ / تخالهُ صَوْنًا / ليد / س / بجسمه / سَقَمُ

متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفاعِلن متفا

فائدة معرفة الزحافات والعلل

فائدتها تكمن في استطاعة الشاعر الخروج من وزن التفعيلة الأصلية، إذا أعياه الوزن مع السياق الذي اختاره، فيجد فيه فسحة وسعة، يتمكن من خلالها نظم الكلام على وزنٍ معتبر، دون كسور ولا خلل. كما تمنحه الحرية في التلون الإيقاعي بما يناسب موضوعه وحالته النفسية واللغوية.

تنبيه : عرفت أن الشأن في الزحاف عدم اللزوم إذا وقع، وفي العلة اللزوم، ولكن قد يلزم الزحاف، كما قد تلزم العلة.